الإبداع هو الحل

فى عام ١٩٥٧ أطلق الاتحاد السوفيتى السابق مركبة الفضاء المعروفة باسم (اسبونتك) واستطاع بها أن يخرج من الأرض بجاذبيتها إلى الفضاء اللانهائى، عندئذ شعر الغرب ولاسيما فى الولايات المتحدة الأمريكية بصدمة حضارية كبرى، أصابت الكبرياء الأمريكى العلمى والتكنولوجى، فقد أدركوا أن الروس قد حققوا وثبة حضارية فى طريق التقدم العلمى، وأنهم استطاعوا أن يغزو الفضاء بإمكانات علمية أكثر تطورًا وإبداعا مما يملكه الأمريكان.

وَطُلِبَ من العلماء أن يفسروا أسباب هذه الفجوة العلمية التى حدثت بين القوتين العظميين، وكان الطلب جماهيريا، يترجم حالة الخوف من ذلك التقدم السوفيتى المذهل، ويترجم على الجانب الآخر حالة الوعى والانتماء والحرص على التقدم العلمى والتكنولوجى.

واكتشف العلماء أن السبب يرجع إلى التعليم، فالجامعات الأمريكية تخرج كما هائلا من المتعلمين، أغلبهم قد تدرب على تطبيق ما هو معروف بأساليب تقليدية، وأن المناهج بشكلها الحالى لا تستطيع أن تواكب التغيير فى عالم اليوم، وأن الأمة الأمريكية أصبحت فى خطر، لأن التعليم يعتمد على الحفظ والتذكر والتلقين، وهذه أمور لا تحقق إبداعا أو تطورًا.

وبدأ العلماء يفكرون فى كيفية الخروج من هذا المأزق المصيرى، الذى يمثل تحديا حضاريًا، وكانت الاستجابة للتحدى بوضع كافة قيمهم العلمية موضع شك، خصوصًا المناهج التعليمية التى تعتمد على الحفظ والتذكر.

وانتشرت على نحو غير مسبوق البحوث والدراسات، التى تتخذ من الإبداع موضوعًا لها، فالإبداع هو الحياة، وهو جوهر وجود الإنسان. بدءوا يدرسون التكوين العقلى للإنسان وكيفية تحديد قدراته العقلية، معايير الحكم على الشىء المبدع، الخصائص التى تنطوى عليها شخصيات المبدعين، وكيف يمكن تنمية الإبداع، واكتشاف المبدعين والموهوبين.

وتصدى لهذه المهمة الحضارية علماء من أمثال جيلفورد وتورانس وتيلور ومكينون وغيرهم.

وبدا واضحًا أمام هؤلاء العلماء والباحثين أن الإبداع هو الحل لمشكلات الأمة، وأن الأمم العظيمة تستجيب للتحدى بتفجير إمكاناتها وقدراتها وإبداعاتها كى تحقق النقلة الكيفية لأمتها حضاريا، أو كما يقول (توينبى) المؤرخ البريطانى الشهير «إن الحضارة تولد عندما يواجه البشر تحديًا، ويستجيبون لهذا التحدى، وتنمو حين تواجه التحديات الجديدة باستجابات جديدة».

وكان من جراء هذه الاستجابة المبدعة للتحدى الذى فرضه السبق السوفيتى فى غزو الفضاء هذا التطور العلمى المذهل، الذى تعيشه

الولايات المتحدة، والذى يعتد ليستوعب كافة مناشط الحياة، مهيئا للإبداع والمبدعين وأصحاب المواهب الخاصة الفرص لإطلاق العنان لقدراتهم وإمكاناتهم الخبيئة..

□□□

وفى بلادنا، نحن نعيش تحديات كبرى: اقتصادية وتكنولوجية ومعرفية وتنموية وهذه التحديات تستوجب حلولاً غير تقليدية، تكمن فى ضرورة البحث عن المبدعين والموهوبين، وتهيئة المناخ أمام قدراتهم وإمكاناتهم، حتى تتفجر علما ومعرفة وإنتاجًا.

فنحن نعيش فى عصر الخارج عن إيقاعه ضائع، ولا يمكن أن نحيا مستهلكين للحضارة غير منتجين لها، فى عصر لعل أهم ما يميزه أنه عصر يتشكل من خلال فتوحات علمية مذهلة فى وسائل المواصلات ووسائل الاتصال ووسائل الإنتاج وعلاقات الإنتاج وتكنولوجيا المعلومات.

وقد وضعت هذه التغيرات العلمية المتسارعة نهاية لعصر التطور البطىء، والتى كان فيها التغير يمضى موازيا لإمكانات الإنسان على الاستيعاب والتكيف، إلى عصر يستحيل معه التنبؤ بما هو قادم، فالإنسان بإبداعاته الخلاقة استطاع أن يختزل المسافات الزمنية، مدركا بوعى أن المعرفة قوة ومن ثم كانت وثباته الكيفية تكمن فى الانتقال من عالم الطاقة وحسن ترشيدها واستثمارها إلى المعرفة حيث استثمار طاقات الإنسان الإبداعية والعقلية عن طريق تكنولوجيا المعلومات.

وفى العقدين الأخيرين على الدخول فى القرن الحادى والعشرين، جاوز الإبداع المعرفى كل قدرة على التنبؤ، حتى إن عالمًا مثل (توفلر) مهتم بالمستقبليات، أصدر كتابه الأخير (تحول السلطة Power Shift) وفيه حاول رصد مظاهر التطور العلمى والتكنولوجى فى عالم اليوم وفى عالم الغد، بيد أنه لم يستطع أن يتنبأ بالإنترنت، لأن الإنترنت احتل مكانه على الساحة المعرفية فى نفس عام صدور كتاب توفلر (١٩٩٠). وتحول العالم إلى قرية تكنولوجية واحدة، تجاوزت فيها وسائل الاتصال والمواصلات الحدود بين الأمم والشعوب، بيد أنها لم تستطع حتى الآن أن تتجاوز الخصوصيات الثقافية الفريدة للأمم والشعوب.

وتبلورت مظاهر الثورة المعلوماتية الجبارة فى مفاهيم تحاول ترجمة ما يحدث فى عالمنا من متغيرات متسارعة أحدثتها الثورة المعلوماتية الجبارة.

وتتمثل هذا المفاهيم فى : الكوكبية (العولمة Globalization)، والكونية Universalism و (الاعتماد المتبادل interdependerce)، والإبداع بوصفه مطلبا لا مناص منه لمن أراد أن يجد لنفسه موقعًا متميزا فى عالم اليوم.

فنحن نعيش فى عصر لم تعد الحواسب الآلية فيه ولا الإنترنت مجرد ترف معرفى بل ضرورة حياة، من شأنها أن تطلق كوامن الإبداع المصرى الخبيئة، وتتيح فرصا للمشاركة فى عصرٍ، الخارجُ عن إيقاعه متخلفٌ معنويا واقتصاديا وتكنولوجيا وعسكريًا.

مع اليقين بأن العقل الإنسانى واحد، وأن العقل المصرى الذى قدم إبداعاته الخلاقة عبر عصور ازدهاره الحضارى، قادر على أن يعيش عصره، وأن يختزل مسافاته الزمنية وأن يشارك بفاعلية وإيجابية فى هذا العصر.

فما المشكلة إذن ؟

المشكلة تكمن فى نظام الامتحانات المصرى، الذى هو جزء من نظام تعليمى يقوم على الحفظ والتذكر والتلقين، ولا يشجع على الإبداع الذى هو جوهر وجود الإنسان.

والإبداع لا يمكن أن يتحقق إلا فى مناخ تعليمى يقوم على الحرية والتسامح، مؤمنا بأن تعدد الآراء أمر مشروع، وأن الدهشة وإثارة التساؤل هما أساس المعرفة، وأن التلقائية فى التعبير عن الذات وعن الآخرين وعن الأفكار أيضا من شأنها أن تفضى إلى الإبداع بغير خوف أو فقدان أمن.

وأن اللاتسامح هو نتاج نظام تعليمى صارم، الخروجُ عن الأنموذج الواحد والإجابة الواحدة القطعية والنمط الواحد الراسخ، معناه الخروجُ من فلك الجاذبية، والضياع فى فضاء لا نهائى.

فمثل هذا النظام يجهض الإبداع وينال من القدرات والإمكانات والمواهب المتميزة.

فكيف يمكن للعقل أن ينشط مقدما تجلياته، ومتجاوزًا لواقعه ونحن نطالب التلميذ – فى جميع مراحل التعليم المصرى – أن يكتب ما هو

موجود بالنص، وعلى نحو تقليدى، وإن أى خروج عن مألوف الأنموذج الواحد معناه الخروج عن قانون التصحيح، ومن ثم الفشل والرسوب.

إن هذا النظام التعليمى يخلق نسخًا كربونية وأنماطا متطابقة تفتقر إلى التفرد وإلى الإبداع.

فمن يراجع إجابات الأوائل فى الثانوية أو الإعدادية سيجدها نسخة كربونية منسوخة لهؤلاء الأوائل، لا تفرد ولا إبداع ولا تقديم لجديد إنما الأمر استلام لمقرر دراسى، ثم تعاطيه، كما هو، ثم استرجاعه يوم الامتحان.

إنه نظام يرسخ المسايرة والتواؤم، وفى التواؤم قهر واستسلام لما هو موجود ولا شىء سواه.

والإبداع تجاوز لما هو كائن إلى ما ينبغى أن يكون إنه نزوع صوب المستقبل، تشترك فى تحقيقه قدرات عقلية متميزة وإمكانات متواصلة ومواهب شتى، وخيال خصب وفعال، وأساليب تفكير نقدية، وروح فكرية تتصف بالتسامح وانفتاح العقل على الخبرة والحياة.

وللحقيقة فإن مشكلة الامتحانات فى مصر قديمة، فها هو إسماعيل القبانى الرائد التربوى المستنير يعلن احتجاجه على هذا النظام الذى يهدف إلى حشو أدمغة التلاميذ ولا شىء سوى ذلك يقول إسماعيل القبانى:

«إن أكبر ما يؤخذ على التعليم فى مدارسنا هو أنه لا يثقف عقل الطالب، ولا ينمى فكره ولا يربى فيه قوة الابتكار وسلامة الحكم وروح

النقد والاستقلال فى الرأى، ولا يبعث فى نفسه حب العلم وتقديس الحق والشعور بالواجب، وبالإجمال لا يهيئ الفرص لتكوين الشخصية وبناء الخلق المتين، الذى يؤهل الطالب للكفاح فى الحياة ولخدمة المجتمع. ومن أهم أسباب ذلك أننا أخطأنا غاية التربية، فصرنا نعنى بتكديس المعلومات، ولا نبحث عن أثرها فى النفس، ولا شك فى أن الامتحانات بصورتها الحالية عامل قوى، بل هى أقوى عامل يوجه التعليم فى ذلك الاتجاه »..

ويكاد يكون كلام الدكتور القبانى فى الثلاثينات وصفا دقيقا لما نعيشه اليوم رغم التطور الذى شهده الحقل التعليمى فى المناهج ووسائلها وفى التربية بفروعها، وفى التشخيص النفسى وعلوم الصحة النفسية.

وعلى أية حال، فإن المشكلة تكمن فى نظام الامتحانات الذى لا يقيس إلا ما حفظه الطالب واستظهره، متجنبا البحث عن قدرات الطالب وإمكاناته وقد ترتب على ذلك النظام أمران كلاهما مر.

الأول: تفشى ظاهرة الدروس الخصوصية.

الثانى: الغش فى الامتحانات.

بالنسبة للأمر الأول فقد أدى التسابق المحموم بين الأسر والتلاميذ للحصول على أكبر قدر من الدرجات إلى تفشى ظاهرة الدروس الخصوصية على نحو يجعل منها ظاهرة مصرية أصيلة.

وقد أدى تفشى هذه الظاهرة بين الطلاب إلى فقدان الطالب الثقة بنفسه، وخلعها على كائن مفارق له، وهو المدرس الخصوصى، الذى يقوم

(بكبسلة) المادة العلمية – إن صح هذا التعبير – أى بتحويلها إلى (كبسولات) ولكنها من أثير، على الطالب أن يبتلعها ويختزنها كما هى ليوم الامتحانات. وفى الامتحانات تكون البراعة فى استرجاع المادة المحفوظة كما هى. بغير إضافة أو تعديل أو نقد أو تخيل أو إبداع.

ثم إن الدروس الخصوصية أصبحت أمرًا يهدد مجانية التعليم وديمقراطيته، وتعكس التمايزات الطبقية فى مجتمع يعتبر البعد الاجتماعى هدفا له. فالقادرون يأتون لكل مادة باثنين من المدرسين وأحيانا أكثر، وبراعة المدرس تكمن فى قدرته على تخمين الأسئلة، وتدريب الطالب على اتباع الإلف والمألوف فى حلها.

ولنا أن نعْرف أيضا أن الدروس الخصوصية كانت أحد العوامل التى أدت إلى نقص السيولة النقدية، فالأسر لديها اختيار من اختيارين إما أن تنفق على الدروس الخصوصية وإما أن تشترى من الأسواق وبدهى أنها تختار الممكن الأول.

والعجيب أن ارتفاع الدرجات لا يترجم قدرة علمية حقيقة إنما هو نوع من (التضخم) فى الدرجات بغير كفاءة أو فاعلية تشبه التضخم المالى.

الأمر الثانى: هو تفشى ظاهرة الغش على نحو ينبئ بتدمير قيم التف حولها المصريون وعاشوا آلاف السنين عليها. فمثل هذا النظام يجعل الغش أمرًا ممكنا، حيث يتفنن بعض الطلاب فى استحداث طرق جديدة للغش حتى أصبحنا نسمع عن حالات غش جماعية فى بعض اللجان، استخدمت فيها مكبرات الصوت أى أصبح الغش يمارس وكأنه أمر مشروع وفى العلن.

فهل هذا معقول، لبلد يسعى إلى تجاوز نفسه، ويعيش تحديات اقتصادية واجتماعية وثقافية؟

فهل هذا معقول فى عصر يسابق نفسه إبداعيًا، والإبداع فيه هو القوة والثروة والوجود؟

إننا - بنظامنا التعليمى بشكله الحالى - نرسخ الاتباع والتلقين والتذكر وجميعها تأكيد على ثقافة الذاكرة، التى لا يكتب لها البقاء إلا فى المجتمعات الاستبدادية التى تقوم على الفكرة والرأى الواحد، والتوجه الواحد والغاية الواحدة.

فى حين أننا نعيش فى مجتمع يؤمن بالتسامح وبتعدد الآراء ومشروعيتها ويعيش تحديات التأصيل الديمقراطى، ويأخذ بنظام السوق الحر بآلياته ويؤمن بالمبادرة الشخصية والتقدم الشخصى.

إذن فثمة تناقض ينبغى رفعه، لأن التعليم هو الوسيلة المركزية لإحداث التغيير المنشود، ونظام التعليم عندنا، لا يريد أن يجدد نفسه، باحثا عن وسائل من شأنها أن تفجر الإبداعات الخلاقة والإمكانات والطاقات والمواهب. ثم إن المواهب تحتاج إلى تعدد المجالات غير الأكاديمية حتى تتفتح وتزدهر مواهب الطلاب كالموسيقى والرياضة ونظم الشعر وكتابة القصة وما إلى ذلك.

والطالب لا هم له إلا حفظ دروسه وحشوها فى رأسه إلى يوم الامتحان.

فكيف يمارس مواهبه فى ظل هذا النظام التعليمى؟

كيف يكتشف نفسه، ويكتشف مواهبه، وينميها ويصقلها فى ظل نظام تكديس المعلومات والحفظ والتلقين؟

وتأسيسًا على كل ما سبق نقول: إن الإبداع هو الحل لتحديات التنمية والتقدم العلمى والتكنولوجى وإن الأخذ بالإبداع منهجًا ووسيلة يستلزم إحداث تغيير جذرى فى نظامنا التعليمى الذى يقوم على الحفظ والتذكر والتلقين.

ولا يمكن لأمة أن تنهض إلا من خلال تحرير عقلها من أسر الإجابة الواحدة والنموذج الصارم والفكرة القطعية، فلابد من التحرر من هذه الدوجما التعليمية، التى تنعكس على سلوك الناس وتجعل بعضهم متطرفا فى استجابته وفى سلوكه.

أليس غريبا أن يكون التطرف والمتطرفون من بين الطلاب الذين حصلوا على درجات عليا تؤهلهم لدخول كليات القمة؟

لقد تعود الطالب على الفكرة القطعية، التى عليه أن يتعامل معها كما هى بدون أى إعمال للعقل أو الخيال.

فنحن نغرس فيهم أن كل مشكلة لها إجابة واحدة، فى حين أن الأمر على الضد من ذلك تماما، ومن جراء أحادية الإجابة، نقتلع من أبنائنا المرونة العقلية والنفسية التى هى المعيار الأوحد لكل سواء نفسى ولكل إبداع.

فالإبداع ليس معناه احتكار المعرفة، أو رؤية الأشياء من منظور جامد مغلق على نفسه، بل من خلال مرونة تولد عصفا عقليا من شأنه أن يولد المزيد من الأفكار.

والإبداع فى صميمه تجسيد للمستقبل يقوم على تجاوز أوضاع علمية قائمة إلى أوضاع علمية قادمة، ومتواصلة بغير انتهاء.

obeikandl.com